ماستر تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

السداسي : الثالث

المقياس : الاستشراق و تاريخ الغرب الإسلامي.

المحاضرة رقم 3

جذور الاستشراق الأولى و تطوراته إلى غاية بداية الحقبة الاستعمارية

اختلفت الآراء حول الجذور الأولى للاستشراق ، فلا يعرف بالضبط البدا ية الحقيقية لتاريخ الاستشراق ، و من الآراء البارزة ما ذكره الدكتور مصطفى السباعي بأنّ جذور الاستشراق تعود إلى الرحلات التي قام بها بعض الرهبان الغربيين لبلاد الأندلس إبان عظمتها و مجدها ، و تثقفوا في مدارسها ، و ترجموا القرآن الكريم و الكتب العربية إلى لغاتهم ، و تتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم ، و بصفة أخص الفلسفة و الطب و الرياضيات ، و من الأمثلة على ذلك أوائل الرهبان كالراهب الفرنسي "جربرت " و الذي تم انتخابه بابا لكنيسة روما عام 999م باسم سلفستر الثاني (940-1003م) بعد تعلمه في معاهد الأندلس و عودته إلى بلاده ، و"بطرس المحترم "(1092م- 1156 م) و جيراردي كريمون (1114م- 1187م) ، و بعد عودة هؤلاء الرهبان إلى بلدانهم نشروا الثقافة العربية ، ثم تمّ تأسيس المعاهد للدراسات العربيدة مثل "معهد بادوي للعربية" ، و أخذت الأديرة و المدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية .

و يوافق هذا الرأي و يؤكده الباحث أنور محمود زناتي ، فحسبه أنّ البعض يعود به إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس ، حيث تمثل في إقبال المستعربين من الأوروبيين على دراسة العربية ، و جمع المعلومات عن المسلمين ، ثم ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية ، و يدل على ذلك أيضا وجود مدونات إسبانية محملة بتأثيرات عربية واضحة في مضمونها ، مما يثبت أن مؤلفيها أخذوا مادتهم التاريخية و قواعدهم الحسابية من مصادر عربية ، ومن ذلك المدونات مخطوطات مختلفة وجدت في

أوبيط oviedo ، و هي محفوظة في مكتبة الإسكوريال ، و قد احتفظ لنا بها القديس أولوجيوس القرطبي المتوفى سنة 859م ، و نقلت إلى أوبيط عام 884م ، كما نجد الطريقة ذاتها في "المخطوطة المتنبئة Cronica Albeldenso التي كتبها مؤلف مجهول عام 883م ، و في "مخطوط البلدة Cronica Albeldenso" التي كتبها الراهب فيجيلا و أتمها عام 976م ، و بعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب و مؤلفات أشهر علمائهم ، ثم أسست المعاهد التي تعنى بالدراسات العربية أمثال: مدرسة "بادوا العربية"، و أخذت الأديرة و المدارس الغربية تدرّس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية ، و استمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب و تعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون ، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين ، حيث لعبت الحركة الصليبية دورا مركزيا على مستوى الأحداث العالمية في بداية العصر الوسيط و التقاء الشرق بالغرب وجها لوجه ، و حدوث ظاهرة التمشرق الصليبي و افتتانهم بالشرق .

إنّ دراسة الشرق العربي المسلم جاءت بقرار كنسي و كانت نتيجة من نتائج الحروب الصليبية التي كانت أيضا بقرار ديني ، إذ أنّ الحملات الصليبية باتجاه الشرق العربي الإسلامي كانت غايته ا عمليا البحث عن حل لمشاكل المجتمع الغربي المسيحي و كذلك إقامة كنيسة عالمية بإخضاع الكنيسة الشرقية لسلطة روما من خلال إيجاد هدف عام مشترك ، هو قتال المسلمين و تحرير بيت المقدس ، و بالتالي فإنّ الحروب الصليبية في دوافعها و كذلك في أدواتها كانت أوروبية غربية ، إذ تشكلت معظم جيوش تلك الحروب من فرنسا و إيطاليا و أسكتلندا و ألمانيا ، و كان وجود الشرق في ذهن الغرب من خلال النتاج ا لفكري الأدبي و التاريخي الذي أعقب هذه الحروب ، و الواقع فإنّ المجتمع الغربي قد اكتشف أهمية الشرق و معارفه و علومه منذ العصور الوسطى ، و نقل ذلك التراث نقلا لا يظهر فيه التصرف إلا في تجاهل ذكر المؤلفين الحقيقيين ، و عن طريق ذلك خطت أوروبا خطواتها التاريخية في مجال النهضة .

و بذلك الفكر و على هديه أخذت أوروبا منهج التطور العلمي و بثت لنفسها الشخصية العلمية الرائدة ، و أدرك الغرب من خلال حروبه الصليبية أنّ الشرق يتفوق عليه فكريا و حضاريا و اقتصاديا ، و أنّه يجب على الغربيين أن يسيروا في نفس الطريق الذي سارت فيه شعوب الشرق لكي ينهضوا و يتقدموا ، فالفكر الاستشراقي إذا في رأي البع ض نشأ في رعاية الكنيسة و خضع فيما صدر عنه لتوجيهاتها ، و من ثم لم يكن عملا علميا وإنما كان لونا من ألوان المقاومة للمد الإسلامي.

و لكن من المتفق عليه إلى حد كبير بين الباحثين – خاصة الغربيين – أنّ الاستشراق اللاهوتي الرسمي قد بدأ وجوده حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي 1312م ، و ذلك بإنشاء عدد من كراسي الأستاذية في العربية و العبرية في جامعات باريس و أكسفورد و بولونيا و أفينيون ، و يبدو أنّ الاستشراق قد قام في البداية على جهود فردية لم تكن ذات تأثير على مجرى الفكر الغربي مما أدى إلى عدم اتخاذها نقطة بداية للاستشراق لدى بعض الباحثين ، و من ثم فإنّ اعتبار الحروب الصليبية التي بدأت التعبئة لها في مجمع كليرمونت 1095م على عهد البابا أوربان الثاني (1042-1099م) هي البداية الحقيقية للاستشراق .

و قد تنوعت أنماط و مناهج الاستشراق الديني ، و أهم المستشرقين هم يوحنا الدمشقي (680 – 750م) و الفرنسي بطرس المبجل (1092 – 1156م) و الكتالوني ريموند لول (1235- 1316 م) في حقبة العصور الوسطى ، و كل واحد منهم يمثل مرحلة مهمة على صعيد دراسة الشرق و الإسلام ، بدأت مع الأول الذي دخل في مجادلات مع المسلمين ، أما الثاني فقد أنجزت تحت رعايته أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام 1143م في دير كلوني في جنوب فرنسا ، و ارتبط الثالث بإقرار مجمع فيينا الكنسي إنشاء كراسي لدراسة اللغة العربية في كل من باريس و بولونيا في عام 1312م ، و حثّ لول على أن يُعتمد قرار كنسي بإنشاء ست مدارس للغات الشرقية في أوروبا ، و الهدف المشترك بين جهود الرجال الثلاثة هو دراسة الإسلام ، و هناك ميشيل سكوت و هو أسكتلندي (1175 – 1226م) درس في أكسفورد و حصل من جامعة باريس على لقب العالم الرياضي ، و تعلم القرآن في طليطلة بالأندلس ، و قد كتب عن الإسلام و المسلمين مما جعله حجة في هذا المجال ، و كان مقرّبا من الباباوات و الأباطرة ، و خاصة فريدريك الثاني (1194-1250م) ، و يعد ميشيل سكوت صاحب الفضل الأكبر في تحرير الفكر الأوروبي من الجمود في عصر الظلام الكنسي ، و هو الذي كان متأثرا بابن رشد (1126- 1198م) ، أمّا الألماني ألبير الكبير (1206 – 1280م) فقد أخذ عن ميشيل سكوت إعجابه بابن رشد ، و إن كان قد جحد فضله عليه خوفا من الكنيسة و رئيس أساقفة ألمانيا ، و تاريخ ألبير الكبير الألماني الأصل و هو يطلب العلم في جامعة بادوي و ديركلوني و ستراسبورج ثم باريس ، يدلنا على أنّه قد تخصص بدأب دونما كلل في مؤلفات ابن رشد و ابن سينا و الغزالي و الفارابي ، و هو يقول: "عجبت لأتباع محمد، كيف استطاعوا في هذه الحقبة من الزمن أن يرتفعوا بالعلوم له ذا المستوى؟ " ، و وجدنا أيضا

القديس الإيطالي توما الأكويني (1225-1274م) ، فهو - و برغم معارضته لآراء ابن رشد - لا ينكر فضل المسلمين في تحرير عصور الظلام التي عاشتها أوروبا ، ليضع بعد ذلك هذا التطور الفكري للحضارة الإنسانية ، ثم أعقبته دعوات أخرى في الاتجاه نفسه مثل: كتابات الإنجليزي هربرت بريدو (1648 - 1724م) و البريطاني سيمون أوكلي (1648-1720م) ، ثم تبعه في القرن التاسع عشر العديد من المستشرقين و من أبرزهم ألويز شبرنجلر (1813 – 1893م) و الاسكتلندي وليم موير (1819 – 1905م) و البريطاني مرجوليوث (1858 - 1940م) و الأمريكي دنكان ماكدونالد (1863 – 1942م) ، و يرى بعض الدارسين أنّ هذه الآراء ما كانت استشراق ، لأن مقاصدها ما كانت معرفية بل تبشيرية .

و يرى دكتور رضوان السيد أن التاريخانية الألمانية و الهولندية و الفرنسية هي التي بلورت على مشارف القرن التاسع عشر المعالم الأولى للاستشراق بمعناه العلمي، فقد قام الهولندي توماس إرپنيوس (1584-1624م) بنشر كتاب عن النحو العربي باللغة اللاتينية ظل معتمدا طوال ما يقرب من قرنين ، و ازداد تأثيره في الألمان عندما قام يوهان ميخائيليس (1717-1791م) عام 1771م بترجمته إلى اللغة الألمانية .

و يرى بعض الدارسين الحديثين أنّ اتساع رقعة الدولة العثمانية و روابطها الاقتصادية و السياسية الممتدة مع مجموعة كبيرة من الدول الأوروبية و الغربية ، كان عاملا كبيرا في دفع حركة الدراسات الاستشراقية آنذاك مع كل ما حملته هذه الحركة من آثار إيجابية أو سلبية ، ليتواصل الاهتمام بلغات العالم الإسلامي و العربي و لهجاته ، و حتى الرهبان كانوا من المهتمين بدراسة اللغة العربية ليعينوا أقوامهم على الشعوب العربية و الإسلامية ، ليتمكنوا منهم في جميع مجالات الحياة الدينية و الفكرية و السياسية و الثقافية و الاقتصادية و الاجتماعية و حتى النفسية ، و الذي لم يدع الاستشراق يثمر ثمرات موضوعية هو ارتباطه بالكنيسة و رجال الدين ، و لم يتأت ذلك إلا مع نهاية القرن السابع عشر، حين مالت بعض الدراسات إلى الموضوعية و العلمية المحايدة مع الإسلام لا الطاعنة فيه ، حتى إنّ كتاب "الديانة المحمدية" للمستشرق الهولندي "هادريان ريلاند (1718 – 1676م) أدرجته الكنيسة الكاثوليكية في قائمة الكتب المحرمة ، و يمنع تداوله لما فيه من الصحة و الموضوعية ، و ذلك خوفا من دخول أفراد كثيرين في الإسلام .

و قد شهد الاستشراق في القرنين السادس عشر و السابع عشر ازدهارا في النواحي العلمية و الدراسية المتخصصة ، ففي القرن السادس عشر – و تحديدا عام 1539م – تم إنشاء أول كرسي

للغة العربية في الكوليج دي فرانس في باريس ، و شغل هذا الكرسي الفرنسي جيوم بوستل (1510 -1581م) Gguillaume Postel ، الذي يعد أول المستشرقين الحقيقيين ، و قد أسهم كثيرا في إثراء دراسة اللغات و الشعوب الشرقية في أوروبا ، و جمع في الوقت نفسه – و هو في الشرق – مجموعة هامة من المخطوطات ، و قد سار على نهجه تلميذه الفرنسي جوزيف سكاليجر Joseph Scaliger (1540-1609م) .

و كانت أول مطبعة عربية في أوروبا هي تلك التي أمر بإنشائها الكردينال فرناندو دي مدتشي (1549-1609م) كبير دوقات توسكانا ، و كان يرأس هذه المطبعة – التي كان مقرها في روما – شاب إيطالي من بلدة كريمونا يدعى جيوفاني بتستا رايموندي الذي أقام في المشرق مدة طويلة ، و يحتمل أنه تعلم العربية ، و على كل حال فإنه اهتم بالخطوط العربية و الحروف العربية و خصائصها ، فاستطاع أن يصنع حروفا عربية مختلفة الأوضاع مفردة متصلة بما قبلها متصلة بما بعدها في آخر الكلمة ، و أتم حفر و تقطيع هذه الحروف العربية المتحركة المرسومة رسما جميلا ، و ابتداء من 6 سبتمبر 1586م بدأت المطبعة في جمع و طبع أول إنتاج لها و هو كتاب القانون لابن سينا ، و معه كتاب النجاة (الذي هو مختصر الشفاء) ، و تم إنجاز و طبع القانون و معه النجاة في 1593م .

أما القرن السابع عشر، فقد واكبه اهتمام خاص من طليعة المستشرقين بالدراسات الإسلامية و التراث العربي و الإسلامي ، و الإشراف على نشر هذه الكتب و محاولة تصحيحها ، و لذا يمكن أن نقول إن هذه الحقبة تمثل التجارب الأولى لتعاطي المستشرقين للأسلوب الحديث في تصحيح النصوص التراثية العربية ، ثم تكاملت و نضجت هذه التجارب في وقت لاحق .

و عندما أقبل القرن الثامن عشر كان الاستشراق قد و طد أقدامه و استقل بكيانه و تحددت معالمه إلى حد بعيد ، و شهد إنشاء كرسيين للغة العربية في جامعتي أكسفورد و كامبريدج ، و توسعا أوروبيا هائلا و إقبالا من الطلاب و الباحثين غير مسبوق ، و شرع الغربيون في تأسيس الجمعيات العلمية التي كانت نقطة انطلاق كبرى للاستشراق ، حيث تجمعت فيها العناصر العلمية و الإدارية و المالية ، فأسهمت إسهاما فعالا في البحث والاستكشاف و التعرف على عالم الشرق و حضارته ، و قد أقيمت المعاهد لتعليم العربية و آدابها .

و في عام 1798م جاءت الحملة الفرنسية على مصر، و كان من أهم نتائجها الاتصال المباشر و المنظم بالشرق ، و الكشف عن طريق المعاينة و المشاهدة لأحواله السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ، و كانت هناك محاولات جادة كرستها الحملة لمعرفة مصر و الشرق حتى قبيل قدومها

إلى مصر ، من تأسيس المدرسة الأهلية عام 1793م لتدريس اللغات العربية و التركية و الفارسية ، و كان الغرض من تأسيسها هو إماطة اللثام عن الشعوب الشرقية و دراستها بشكل علمي ، و كذلك إيجاد مجموعة من العلماء و الباحثين المتخصصين في الدراسات الشرقية ، و الذين أصبحوا نواة للاستشراق العلمي ، و الذين قاموا بتحرير كتاب وصف مصر " Description de L'Egypt "، و قامت فرنسا بإنشاء مدارس لتدريس اللغة العربية من ريمس و شارتر ، و إنشاء كراسي للغتين العربية و العبرية في باريس ، و إنشاء كرسي للدراسات الإسلامية في جامعة السوربون ، و التي ألحق بها فيما بعد معهد الدراسات الإسلامية ، و كانت جامعة السوربون و لا زالت تلعب دورا هاما في مضمار الدراسات العربية و الإسلامية .

و شهد القرن التاسع عشر اهتماما أوروبيا بالشرق ، و ظهرت أسماء معروفة في دراسة الشرق و لغاته و حضاراته ، بفعل دوافع سياسية مثل البريطانيين هنري بالمر (1840-1882م) و ريتشارد بيرتون (1821-1890م) و تشارلز دوتي (1843 – 1926 م) ، فالأول درس الجغرافية و الطبيعة البشرية لصحراء سيناء بعد احتلال إنجلترا لمصر عام 1882م ، و الثاني ريتشارد بيرتون الذي كانت له مصالح لبلاده في مناطق الوطن العربي و خاصة الجزيرة العربية ، و قد عمل ضابطا عسكريا في الهند ، ثم عمل في خدمة بلاده في مصر ، و قام برحلات في الجزيرة و نشر وصفا لها في كتابه الحج إلى المدينة و مكة ، أما دوتي فقد درس الجغرافية الخاصة بشبه الجزيرة العربية من خلال رحلاته ، و نشر بعد عودته إلى إنجلترا كتابه رحلات الجزيرة العربية ، الذي يحوي معلومات تفصيلية عن مناطق لم يعرفها الإنجليز، و هذه الصفة العلمية للاستشراق كانت نتيجة انفصام الهوة بينه و بين الكنيسة – وخاصة في القرن التاسع عشر – و تدفق المستشرقون على أقطار الشرق العربي ، و منه يمكن القول إنّ الاستشراق قد تشكل كعلم في القرن التاسع عشر ، و ذلك عندما تأكد استعداد الناس للانصراف عن الآراء المسبقة ، و عن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتي ، و للاعتراف لعالم الشرق بكيانه الخاص الذي تحكمه نظمه الخاصة ، و عندما اجتهدوا في نقل صورة موضوعية له ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، و من ذلك يتضح أنه بتخليص الاستشراق من سيطرة اللاهوت أصبح علما قائما بذاته، هدفه دراسة اللغات الشرقية و آدابها ، و برزت هناك نزعة علمية تتجه إلى دراسة الآداب و العقائد الشرقية لذاتها ، مستهدفة المعرفة وحدها إلى حد ما .

و حينما دخل العالم أعتاب القرن العشرين جرت أحداث هامة أدت إلى تحولات خطيرة في العالم العربي و الاستشراق ، ففي القاهرة أنشئت الجمعية الأهلية التي احتضنها عدد من المستشرقين

الذين تولوا التدريس فيها ، و خرّجوا دفعات كبيرة من الطلاب العرب ، و وفد عدد كبير من المستشرقين المتخصصين للتدريس بالجامعة المصرية ، لعل من أبرزهم: نيللينو ، ماسينيون ، شاخت، توماس أرنولد ، كازانوفا، كواوس ، ليتمان، الذين حاضروا في الفقه و الآداب العربية و الفلسفة و العلوم و الفن....إلخ ، و بدأ جيل جديد من المستشرقين يغوص في أعماق الفكر و الدين و الأدب العربي ، فقد اتجهت عنايتهم بالإسلام و شعوبه و أوضاعه الفكرية و الاجتماعية ، مما كان له أثر كبير في هذا العصر، و قد تميز الاستشراق في هذا القرن بإنشاء المراكز العلمية المتخصصة ، و تخصص كل مستشرق في فرع معين من فروع المعارف الشرقية ، و انعقدت العديد من المؤتمرات ، أسهم المستشرقون فيها بنصيب وافر من البحوث و المقالات ، و حرص الأوروبيون و الأمريكيون على إنشاء مراكز للدراسات العربية و الإسلامية في العالم الإسلامي لتكون أقرب إلى هذه البلاد ، و يستخدمها الطلاب و الباحثون الغربيون كمراكز للبحث و الدراسة و لتعلم اللغات الإسلامية و لنشر الثقافة الغربية ، و قد بدأ الغرب في إنشاء هذه المراكز منذ القرن التاسع عشر بإرسال البعثات ، و استمرت حتى الوقت الحاضر، و يمكن أن نعرف مدى سعة و كثافة إنتاج الاستشراق ، إذا لاحظنا أنه نُشر فى الغرب أكثر من ستين ألف كتاب في قرن و نصف (1800 – 1950م) ، مما يُعنى بالشرق العربى وحده ، هذا فضلا عن آلاف المقالات و البحوث التي نشرت حول الإسلام في الدوريات الغربية منذ مطلع القرن الحالي على مدى ستين عاما (1906 – 1965 م) ، كما وثق ذلك "جى. دي. بيرسون "J . D.pearson" مدير مكتبة كلية الدراسات الشرقية و الإفريقية بجامعة لندن في كتابه Index Islamicus الذي نشره في لندن عام 1958م ، ثم أتبعه بملحقين .

و فيما يلى أهم هذه المراكز:

- **فرنسا :**

1- المعهد الفرنسى للاثار الشرقية فى القاهرة (1880م) .

2- معهد الدراسات العليا في تونس (1945) .

3- معهد الدراسات المغربية في الرباط (1931م) .

4- المعهد الفرنسى فى دمشق (1930م) .

و يتبع السفارات الفرنسية في أنحاء العالم مراكز ثقافية تقدم دورات في اللغة الفرنسية و الحضارة الفرنسية ، كما تقدم معلومات عن فرنسا .

- **بريطانيا** :

1- مركز الدراسات العربية في الشرق الأوسط بلبنان.

2- كلية دلهى.

3-كلية فورت - وليم بكلكتا بالهند (1799م) .

4 -كلية الملكة في كتوريا ، و هي مدرسة ثانوية بمصر، و درس بها كثير من أ براء الطبقة الراقية في أنحاء العالم العربي، و التعليم فيها باللغة الإنجليزية.

و للسفارة البريطانية في كل بلد مركز ثقافي يتبع المجلس الثقافي البريطاني، و يقدم دورات في تعليم اللغة الإنجليزية ، و لديهم مكتبة يقضي فيها الشباب أوقات فراغهم ، و لا بد أنهم يحتكون ببعض الإنجليز العاملين في هذه المراكز.

5 معهد الدراسات المغربية في تطوان.

- الولايات المتحدة الأمريكية:

1- الجامعة الأمريكية بيروت.

2- الجامعة الأمريكية – القاهرة .

3- الكلية الأمريكية ببيروت، و هي مدرسة ثانوية درس فيها بعض كبار المسؤولين في العالم العربي.

4- جامعة الشرق الأوسط. بإسطنبول تركيا.

5- مدرسة الدراسات الشرقية الأمريكية بالقدس .

6- المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية ببغداد.

و لأمريكا معاهد لتعليم اللغة العربية لموظفي سفاراتها في العالم العربي ، في كل من تونس و فاس بالمغرب و اليمن ، و كذلك لإجراء البحوث و الدراسات على المجتمعات العربية الإسلامية .